مخاطر التهجير اليهودي

صبري جريس

فيما تتعثّر ما تسمى «عملية السلام» في الشرق الاوسط، منعطفة نحو مسارات لا يعرف أولها ولا يبان آخرها، وذلك لاسباب ومعطيات عدة لا مجال لمناقشتها هنا، يبرز تحدّ جديد، وخطير، في مواجهة الفلسطينيين، خاصة، والعرب عامة، ممثّلاً في محاولات هجرة، او بصورة اكثر دقّة، تهجير عشرات، وربما مئات الآلاف، من اليهود السوفيات الى اسرائيل. واذا كان من غير المفيد التهويل في ما يتعلق بهذا الموضوع، او تضخيمه، فانه لا يجوز، أيضاً، المرور عليه مرّ الكرام والسكوت عن مخاطره، خصوصاً في ضوء النتائج المؤلمة التي ترتّبت على حالات عديدة شبيهة في الماضي، عمرها من عمر الصهيونية.

ركنان رئيسان

الهجرة والاستيطان هما، كما هو معروف، ركنان رئيسان في الفكر والممارسة الصهيونيين، وبدونهما لا تقوم قائمة للمشروع الصهيوني. فواضعو مشروع الدولة اليهودية افترضوا ان هذه الدولة، التي يجب ان تقام في فلسطين ـ «ارض ـ اسرائيل» وفق المصطلحات الصهيونية ـ ضرورية لتصبح «ملجأً آمناً»، يهاجر اليه اليهود «المضطهدون» من كافة أنحاء العالم. وبهجرتهم تلك، بحدّ ذاتها، يدعمون ذلك «الملجأ» ليصبح، فعلاً، «آمناً».

غير انه لم يمرّ الاّ وقت قصير، بعد الانتقال الى مرحلة التطبيق، حتى اتضح ان هذه النظرية غير صحيحة، ولا علاقة لها بالواقع. فاذا كان هنالك يهود «مضطهدون» في هذا البلد، او ذاك، من بلدان الله الواسعة، فان اوضاعهم لم تكن تختلف، عموماً، عن الاوضاع السائدة بالنسبة الى ابناء تلك البلدان؛ اي انه، بمعنى آخر، اذا كان «اضطهاد»، هنا، او هناك، على وجه العموم، فقد شمل الجميع، لا اليهود وحدهم (وفي بعض البلدان لم يكن اليهود، على كل حال، «مضطهدين» ابداً، بل على العكس من ذلك تماماً كانوا ينتمون الى الطبقات المحظوظة والمتنفذة، اقتصادياً وسياسياً واجتماعياً). وبالمدى الذي اتجه به اولئك «المضطهدون» الى الهجرة، فان وجهتهم لم تكن فلسطين، بل بلداناً أخرى، انطلاقاً من مواقفهم السياسية، او، وهذا الأكثر اهمية، تطلعاتهم الاقتصادية. امّا تلك القلّة التي اتجهت الى فلسطين، فانها لم تفعل ذلك من منطلقات سياسية، وعلى وجه التحديد ليس من خلال السعي الى اقامة دولة يهودية في فلسطين، بل انطلاقاً من تقاليد يهودية دينية قديمة تحبّذ العيش في الارض المقدسة، واقامة الصلوات والشعائر الدينية هناك، التي تعتبر اكثر «فعالية» لحمل الله على ارسال «المشياح» ـ المخلص لانقاذ اليهود.

ولقد بانت هذه الاتجاهات، التي تحكّمت في الهجرة اليهودية، واضحة في اول موجة هجرة وصلت فلسطين، واول مستوطنة يهودية أقيمت هناك، سنة ١٨٨٢. وكانت هذه الموجة قدمت ـ ما دمنا